وحدة القصيدة

في الشعر العربي

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

نظام القصيدة في الشعر العربي الحديث

ولقد سار أكثر الشعراء في شتى العصور الأدبية على نهج أسلافهم الجاهليين . فالقصيدة عند حسان أو جرير أو بشار أو أبي تمام أو ابن هانىء أو المتنبي أو البارودي أو شوقي أو حافظ أو الجارم ، هي هي ، في الغالب مزيج من الأغراض والموضوعات والأفكار والمعاني والعواطف والمشاعر المختلفة . ولسنا نستثني من ذلك عصراً دون عصر ، ولا طبقة دون طبقة .

فني قصيدة شوقي في « ذكرى المولد [1] » مثلاً :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

نجد مقدمة طويلة في الغزل ، ثم يخرج الشاعر منه الى الحكمة ويباين ما في دين الله من اشتراكية وعدل واخاء ، ويبلغ ذلك في القصيدة نحو الأربعين بيتاً . ثم يبدأ فيذكر ما كان قد نسيه من الاشادة بالرسول العظيم ، وذكرى مولده الكريم ، ويلم به أي بجوهر القصيدة في أقل من خمسة وعشرين بيتاً . وأنتم تعرفون ما في هذا من الاخلال بالتجربة الشعرية [2] وبرسم الفكرة وتوضيحها .

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٦١ — ٦٣

(٢) لفظ التجربة هنا ليس معناه الحارة ، بل ما يعرض للانسان من فكر أو حادث أو احساس أو نحو ذلك (قواعد النقد الأدبي ٢٥ — ط ١٩٣٦ بلجنة التأليف) — ويعرفها الدكتور أبو شادي بأنها تأثر الشاعر بعامل معين أو أكثر واستجابته إليه أو اليها استجابة انفعالية قد يكتنفها التفكير وقد لا يكتنفها ولكن لا تنخلع العاطفة عنها أبداً . (ديوانه من السماء ص ٥) وفي كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » للاستاذ السحرتي حديث واف عنها ودراسة شاملة لها

وكذلك صنع شوقي في قصيدته : « مشروع ملز »[1]

أني عنان القلب واسلم به من ريوب الرمل ومن سربه[2]

فقد بدأها بالغزل ، ثم تحدث بعد خمسة وعشرين بيتاً في السياسة وموضوع القصيدة، فقال :

ما بال قومي اختلفوا بينهم من صدمة المشروع أو تلبه

إلى آخر ما قال ..

ومرثية شوقي في مصطفى كامل باشا ..

المشرقان عليك ينتحبان تاسيهما في مأتم والداني

بكى فيها الزعيم ، واستمدّ من خلوده مدداً لحكمه الكثيرة ، التي صاغها بمهارة وحذق ، ثم عدّد مآثر الزعيم ، ووصف موكب الوطن في وداعه ، ونعشه المنفوف بالعلم .

هذه القصيدة المشهورة وحدة الموضوع فيها ظاهرة ، فهي في الرثاء ووقف عليه . ولكن الوحدة الفنية — التي سبق أن تحدثنا عنها ، وجعلناها عنصراً من عناصر وحدة القصيدة — مفقودة فيها ، فهي رغم طولها ليست خلقاً فنيًّا كاملاً ، إنما هي تجارب وعواطف ومشاعر مختلفة ، جمع بينها الوزن والقافية والرثاء .

هي رائعة حقاً من حيث هذه المشاعر الوجدانية الحيّة الرائعة الممزوجة بالحكمة والموسيقى . ولكنها رغم ذلك صورة مضطربة لا تعودها وحدة الشاعرية والفن ، التي نريدها ونطالب بها كل شاعر يؤثر أن يهب شعره الخلود والفن .

وقد نقدها العقاد في كتابه « الديوان » ، فرآها آية الشعوذة والتفكك وانعدام الشعور ، ورأى أن أبياتها أصداف معتلة كما يقول ، وأنها خالية من وحدة الأسلوب والقصيدة ، فيما تحذف من القصيدة أو تؤخر أو تقدم ، وبأي بيت تبدأ ، لا يضطرب الشعر ، ولا يختلف المعنى ، ولا تمتنع القصيدة .

ودافع كثير من الأدباء عنها ، فلم يقولوا أكثر من أن فقدان تلك الوحدة وهذا الروح في القصيدة لا يضيرها . وأن حسبها هذه الحيوية والموسيقى وتلك الحكم ، وأنها من عيون شعر الرثاء[3] . وما عدا ذلك من المآخذ ، ومن صلف الشاعر بنفسه وفنه فيها

(١) الشوقيات ج١ ص٦٤ (٢) الريوب : القطيع من بقر الوحش . السرب بكسر فسكون : جماعة الظباء والنساء (٣) راجع اقامة الاستاذ السحرتي في الحديث عنها في كتابه «الشعر المعاصر» ص ١٤٩ وما بعدها

لا يضير القصيدة بأي حال (١)

وانتم تعلمون أن صياغة شوقي كما يقول بعض المحدثين لم تكن مستقلة في الغالب ، بل هي « مما كاد للصياغة الكلاسيكية التي ألفت ظلالاً على شخصيته » (٢) . وشعره مزاج من الكلاسيكية الصيقة والرومانتيكية الخفيفة والواقعية الحلية » (٣)

هذا النهج الفني العام الذي سار عليه الشعراء الجاهليون والاسلاميون والمحدثون ، هو النهج السائد في القصيدة في الشعر العربي .

ولم يشذ عن ذلك ، إلا مدرسة شعراء الغزل في عصر بني أمية ، التي وقفت شعرها على الجمال والحب ، وتابع السير في ضوئها العباس بن الأحنف . وممن شذ عن ذلك أيضاً : أبو العتاهية في زهدياته ، وأبو العلاء في لزومياته التي جعلها وقفاً على الزهد والحكمة والموعظة . وما عدا ذلك فاتباع للنهج القديم في الغالب ، ومخالفة لهذا التوزع في الفكرة والمعاني والشعور والأغراض في القليل .

ولم تكن دعوة أبي نواس للتجديد في مطالع القصائد ذات أثر بعيد في وحدة القصيدة ، فقد دعا إلى وصف الراح ، من حيث كان غيره يدعو إلى وصف الاطلال والديار ، في مطلع القصيدة :

وقد نهج أبو الطيب من بعده القصائد بالغزل ، فقال في مطلع قصيدة له في مدح سيف الدولة :

إذا كان شعر فالنسيب المقدم أكلُّ فصيح قال شعراً متيمُ ؟
لحبُّ ابن عبد الله أولى فانه به يبدأ الذكر الجميل ويختم

ويبدأ أبو الطيب بعض قصائده بالموضوع نفسه فيقول :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

ويبدأ بعض قصائده الأخرى بغير النسيب كالحكمة مثل قوله في مدح كافور :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للدكتور مر ١٤٩ و ١٥٠
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٧
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٧

أسباب ذيوع هذا المنهج في القصيدة في الشعر العربي

يعلل ذلك أحمد أمين بك بأن العربي لا ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة ، وإذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره ، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه . ويرى أن هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب من نقص وما ترى فيه من جمال : فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية نظماً أو نثراً من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت إلى القصيدة ، وخاصة في الشعر الجاهلي ، فحذفت منها جملة أبيات ، أو قدمت متأخراً ، أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك وإن كان أدبياً ما لم يكن قد قرأها من قبل . . ويقول : وهذا النقص تلمحه فيما يكتب في الموضوعات الأدبية ، فأنت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ أو ابن عبد ربه أو أبو هلال في الخطابة أو الوصف ، وما يكتبه أرسطو في ذلك ، رأيت الطبيعتين مختلفتين [1] . وفي أكثر ما يقول هذا الباحث جور في الحكم ، وما ذكره من نقص في أدبنا العربي فنشؤه أن العرب لم تكن من قبل أمة ذات حضارة وعلم وثقافة ، إنما أخذت تنشىء تلك الحضارة والثقافة على مر الأيام .

ويقول الزيات في ضعف وحدة القصيدة في الشعر الجاهلي وفي تعليل ذلك ، ما نصه : يمتاز الشعر الجاهلي بقلة العناية بسياق الفكر على سنن المنطق ، واقتضاء الطبع بملائق المعاني ضعيفة واهية ، وسياق الأبيات مفكك مضطرب ، فاذا حذفت أو قدمت أو أخرت ، لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص . وذلك لأن البدو بطبيعتهم ينقصهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة ، لا ينظمها سلك ، ولا تجمعها علاقة . ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة [2] »

ويقول بعض أدبائنا المعاصرين في وصف هذه الظاهرة وتعليلها [3] : « من النادر أن تجد قصيدة عربية تتناول موضوعاً واحداً من أولها إلى آخرها ، لا تخرج عنه إلى موضوع سواه . ولا شك أن بناء القصيدة العربية نفسه يساعد على تعدد الموضوعات ، لأن كل بيت وحدة قائمة بذاتها ، وكثيراً ما يكون كل بيت مستقلاً عما قبله وما بعده . ومن المكروه

---

(١) فجر الاسلام لاحمد أمين ج ١ ص ٨١ و٨٢

(٢) تاريخ الادب العربي للزيات ص ٣١

(٣) التوجيه الادبي عد ١٩٤٠ ص ٢٩١ و٢٩٢

في الشعر العربي أن يكون في بيت كلمة مرتبطة ارتباطاً نحوياً بكلمة أخرى في بيت سابق أو لاحق . وليس معنى هذا أن يكون كل بيت يتناول موضوعاً جديداً ؛ بل معنى هذا أن الشاعر الذي يريد الانتقال أو التخلص من موضوع إلى موضوع ، يرى طبيعة الشعر العربي تساعده على هذا كثيراً . أضف الى ذلك أن التزام موضوع واحد لا يتناسب تماماً مع التزام القافية ، فان تغيير الموضوع يجعل من السهل ايجاد قوافٍ جديدة ، تناسب الموضوع الجديد . أما اذا التزم الشاعر موضوعاً واحداً فانه لا يلبث أن يستنفد القوافي الى نحو عشرين بيتاً أو ثلاثين . فتثويع الموضوع إذاً يتناسب مع التزام القافية » .

ويجعل الشاعر معروف الرصافي ضعف وحدة القصيدة في الشعر العربي أثراً لعجز الشعراء عن الابتكار ، وغلبة التقليد عليهم ، فيقول : « انبع أكثر المحدثين خطة واحدة في الغزل والمدح ... ولا شك أن النابغين من الشعراء يخالفون هذه الخطة أو يتوسعون فيها .. ولكن الصورة لا عيب فيها من حيث هي بالذات ، بل العيب في اتباع خطة واحدة والتقيد بها ، كأن مخيلة الشاعر عاجزة عن ابتكار المعاني ، والتوسع في وصف الصور العقلية » . (١)

ويبدو لي أن ذلك يرجع في الجملة إلى ما يأتي : —

١ — ليس ما في الشعر الجاهلي الذي قلده شعراء العربية في جميع العصور — من تفكك واضطراب إلا أثراً لتعدد مناظر الصحراء وألوان الحياة والشعور فيها ، وعدم خضوع الشاعر للمنطق ، أو ميله إلى حبس فكره في ناحية واحدة .

٢ — أتقنة الشاعر الجاهلي دعته إلى أن يموّه المدح بكثير من صور عواطفه ومناظر بيئته ، حتى لا يظهر خضوع نفسه لمطالب الحياة وضرورات العيش .

٣ — تقليد الشعراء لنهج الجاهليين في القصيدة تقليداً شديداً .

٤ — قيود الوزن والقافية في القصيدة ، وطبيعة الشعر العربي نفسه ، وذيوع اللون الغنائي فيه دون القصصي أو التمثيلي إلى غير ذلك من البواعث والأسباب السالفة .

البحث تتمة

(١) سحر الشعر لقابيل بحاي ص ١١٩ و ١٢٠